أفلا يتدبرون ؟

للشيخ

ابوعمر احمد بن محمد

الفصل الاول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٨٤)

سورة الزخرف

كان الله :
قبل أن يكون للوجود وجوداً..
وقبل كل شئ وأى شئ .
هو الموجود قبل كل وجود .
هو الحى قبل الحياة .
هو السرمدى فلا يرتبط وجوده بحياة أو موت، وإن ارتبطت به كل الأشياء من وجود وعدم .. من حياة وموت، **فـــالله..**
هو سر الوجود لأنه بقدرته أوجده .
و**هو** سر الفناء لأنه بحكمه أحدثه .
و**هو** القادر بلا حدود فى القدرة .. فلا يصل لقدرته سواه، فمن غير الله يقول للشىء : **كن فيكون** ؟!

هو الله الذى ليس لنا رب سواه : نعبده، ونقدسه، ونستغفره، ونسبح له، توسلا لرضاه، وطلبا لمغفرته، فما من شئ إلا ويسبح له، ولا يغفر الذنوب إلا هو .
هو بيده الأمر وإليه المصير.. يحيينا ويميتنا.. ثم يبعثنا ليوم الحساب، وما بين الحياة والموت والبعث، **هو** يتولانا.. **فهو** يطعمنا ويسقينا، و**هو** يضحكنا ويبكينا، و**هو** يمرضنا ويشفينا، و**هو** يحملنا فى البر والبحر والجو، و**هو** يزوجنا ذكرانا وإناثى، ويهبنا الأولاد والحفدة، ويجعل من يشاء عقيما، فكل شئ مثبت عنده فى أم الكتاب، وكل لما يسر له، فما من شئ خلق عبثاً، فكل أمر **عنده** بقدر مقدور .
فسبحانك ربنا :
علا قدرك..
وعزت منزلتك ..
وتقدست أسماؤك ..
وتوهج الوجود بالأنوار من فيض بهائك ..
وتضاءلت عقولنا عن إدراك ذاتك، لأنها أعظم من كل العلم الذى علمتنا، فما نكون نحن من عظمة الكون الذى خلقت إلا هباءات، وما من علم لدينا إلا وفوقه عليم **هو** أنت.
سبحانك..
سبحانك..
جل وعلا شأنك..
يا صاحب الاسم الأعظم، والأسماء الحسنى التى تعلمناها من الأنبياء والرسل، وأحصيت بتسعة وتسعين اسما، ولو أن الله العظيم قد أخفى عنا بعضها، ليجتهد المجتهدون فى حب المحبوب الأعظم، خالق الوجود..

ومقدر يوم القيامة، يوم فناء كل شئ، إلا **هو** الله الحى القيوم السرمدى أبد أبد سبحانه.

.. وهذا الإخفاء لبعض أسماء الله تعالى، يؤكده ما روى عن رسول الله ρ أنه قال فى دعائه: " **اللهم أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ..** "

والحجب أمر غير مستغرب، وليس بغريب، فليس لنا من علم إلا ما علمنا الله، وما نعلمه من علم الله إلا قليل .

ومن أسماء الله الحسنى التى ندعوه بها سبحانه وتعالى، ونتبتل صفاته وقدرته من خلال ترديدها :

هو الله لا إله إلا هو ــ الرحمن – الرحيم – الملك – القدوس – السلام – المؤمن – المهيمن – العزيز – الجبار – المتكبر – الخالق – البارئ – المصور – الغفار – القهار – الوهاب – الرزاق – الفتاح – العليم – القابض – الباسط – الخافض – الرافع – المعز – المذل – السميع – البصير – الحكم – العدل – اللطيف – الخبير – الحليم – العظيم – الغفور– الشكور – العلى – الكبير – الحفيظ – المقيت – الحسيب – الجليل – الكريم – الرقيب – المجيب – الواسع – الحكيم – الودود – المجيد – الباعث – الشهيد – الحق – الوكيل – القوى – المتين – الولى – الحميد – المحصى – المبدئ – المعيد – المحيى – المميت – الحى ــ القيوم ــ الواجد – الماجد – الواحد ــ الصمد – القادر – المقتدر – المقدم – المؤخر – الأول – الآخر – الظاهر – الباطن – الوال – المتعال – البر – التواب – المنتقم – العفو – الرؤوف – مالك الملك – ذو الجلال والإكرام – المقسط – الجامع – الغنى – المغنى – المانع – الضار – النافع ــ النور ــ الهادى ــ البديع ــ الباقى – الوارث – الرشيد – الصبور.

ولأن الله موجود، فعرشه موجود منذ الأزل، ولأن القرآن حق فهو كلام الله، فقد كان عرشه سبحانه وتعالى على الماء، قال تعالى :

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) سورة هود

وحول العرش كان الملائكة وسيظلون ما أمرهم رب العرش العظيم، حافين يسبحون بحمد ربهم ويقدسونه، فهم عباد الرحمن، خلقهم من نور، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ..

يا الله ..

ما أروعها من صورة..

وما أبدعه من وجود مثالى يليق بمن أوجوده .

سكون نورانى، لا يسمع فيه إلا تسبيح الملائكة..
الكل نور .. من نور الرقيب الحسيب..
فلا شهوات..
ولا صراعات!!..
ولا شاغل للملائكة عن عبادة الخالق العظيم.. فى خشوع العارفين بقدر المعبود .

هناك :
حيث لا نملك الوصول..
فقيدنا الطينى يكبل الروح، ويجعلنا لصقاء الأرض .
هناك :
فى السماوات العلا..
فى ظل العرش الكريم..
يمارس الوجود الطهور، حمداً وتسبيحاً وتقديساً لله الواحد القهار، قال تعالى :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) سورة الزمر

هكذا كان الحال الأول نور على نور.
وهو عالم مجهول بالنسبة للبشر، لأنه أكرم منا خلقاً. لذا لا ندركه بحواسنا. ولا نراه بأعيننا. وإن وضعناه فى عيوننا لأننا نؤمن به، فالإيمان بالملائكة جزء من إيماننا بالله الخالق القادر، قال تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) سورة آل عمران
ومن الملائكة من له جناحان، ومن له ثلاث ورباع، ويزيد الله فى الخلق ما يشاء.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) سورة فاطر
أما عالم الماديات والذى نحن منه، فلقد بدأ مع بدء الخالق فى خلق السماوات والأراضين.. ورصد كل ذلك من قبل بدئه فى اللوح المحفوظ، ثم اكتمل بخلق جدنا الأول آدم عليه السلام من : **أدام الأرض، وماء السماء، وروح الله .**

وبعد خلق آدم عليه السلام وتناسله، بدأ التكليف للملائكة: فمنهم من كلف بالرسالات والرسل كالوحى الأمين جبريل عليه السلام، فهو ملك من الملائكة يحمل كلام الله لمن يجتبى الله من عباده الصالحين.

ومن الملائكة من كلف بقبض أرواح العباد بأمر من الله وهو ملك الموت عزرائيل عليه السلام .
ومن الملائكة من كلفوا بالرقابة على البشر، ومنهم من يقاتلون لينصروا جند الله، ومنهم من يطوفون حول بيت الله الحرام، ومع هذا ككله فانهم يسبحون لله ويقدسونه فى كلي حين.
عليكم سلام الله ورضوانه يا أطهر خلق الله.
أما الكتاب:
فإن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء.
صفحاتها يا قوتة حمراء.
قلمه نور..
وكتابه نور..
لله فيه فى كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة: يخلق ويرزق، ويميت ويحيى، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء.
هكذا نقل ابن عباس عليهما رضوان الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر هذا فى حديث حول بدء الخلق، فهو إذن ليس لوحاً كتلك التى أنزلت على الرسل من قبل. بل هو كتاب مبين – كما ورد ذلك فى القرآن العظيم – فيه ذكر لكل أمور الكون، وكل شأن من شئون الحياة، فهو سجل ينطق بالحق، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ومن هنا يجب أن لا تأخذ الإنسان حين يرتكب خطاياه بعيداً عن يد القانون البشرى مظنة أنه بعيد عن عين الخالق، وحتى لا يتعرض ليوم الهول يوم الموقف لعظيم، يوم الحساب للخزى والمهانة حين يأمر الخالق القهار، بأن يفتح الكتاب، ويقرأ اللوح المحفوظ.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) سورة الكهف

يا سبحان الله :
يتعجبون وقد حذر الخالق مخلوقاته بأنه سبحانه لا تخفى عنه خافية تأخذهم الشفقة والرحمة بأنفسهم، ولم يشفقوا فى حياتهم على غيرهم فيتراحموا ويرحموا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ولكون اللوح المحفوظ كتاب لا يعلم ما به إلا الله، وهو سبحانه وتعالى يعلم ببعضه من يشاء من عباده، فإنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرت به وسجلت بين ضفتيه، قال تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) سورة النمل
ولا عجب:
فهو كتاب الكون يرصد حركته، وحين نقول الكون فإن الأمر يكون أعظم من قدرتنا على الفهم والتصور، فحدودنا المعرفية تقف بلا ما زالت قاصرة عن إدراك مشتملات هذا الكون العظيم الذى لا يعلمه إلا خالقه.
ولو كان العلم بهذا الكون قد تحقق لنا كاملا.. وهو بالقطع لن يتحقق.. وأسباب ذلك الانتفاء عن الإنسان سوف تتبين فى وريقات قادمات إن شاء الله.

أقول وعلى الله التوكل : إن الكون ما زال مستغلقا لعى أفهامنا، وإلا لأدركنا حركة الكون
مما يحيط بنا من: رياح وسحاب وزلزال، أو فى أنفسنا وهى اللصيقة بنا أو فى أبداننا وهى التى تحركنا ولا نزال نتوقع من أمراضها ونحتار لسقمها. فالمعرفة إذن فى هجائيتها بالنسبة للبشر عاجزة ضئيلة، وعكس هذا إذا قسنا المعرفة الشاملة الجامعة المانعة فى اللوح المحفوظ الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. بل وقنن حركتها، ورصد عمرها وقدر أرزاقها، وبدئها وانتهائها.
قال تعالى :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٢٢) سورة الحديد
حقا هو على الله يسير غاية اليسر، معلوم له سبحانه، مرصود فى كتاب علمه الذى ينطق بالحق، ويعلم السر وما يخفى.
يا لعظمة الواقع..
ويا لحكمة الخالق وقدرته.
فقط يا أبناء آدم، لو نفضتم عنكم غطاء كبر الجاهلين، لأدركتم رحمة الخالق الذى لو شاء لهداكم أجمعين. فطريق الاختيار قائم.
فالخير واضح..
والشر واضح..
وكل فى كتاب مبين..
قرآن رب العالمين..
لكنكم تحيدون..
الحق أمامكم وأنتم لا تبصرون..

يأخذكم كبر كاذب، وتكبر الواهمين الغير العارفين بقدرهم وقدرتهم بالقياس لقدرات الآخرين من خلق الله.
لكن هذا جميعه فى كتاب الله معروف، وفى علم الله مرصود. وليس لنا إلا أن نوضح والأمر مفوض لله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٥٩) سورة الأنعام

إذن ودون أن نمارى، أو نجتهد فيما ليس لنا به علم فنزل ونهوى (هذا هو اللوح المحفوظ). هذا هو الرصد المرصود والكتاب المبين، والذى به حساب لكل أمر أمره الله مقضيا.

وكان بدء النشأة كتاب.

الفصل الثانى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) سورة هود

.. أثبت الله كل شى فى اللوح المحفوظ من المخلوقات والخلائق، ولم يعلم بهذا إنس ولا جان ..

فلقد أمر صاحب الأمر القلم فكتب فى اللوح، ثم حفظ محجوباً عن علمكل المخلوقات، وهكذا بدأت الحياة بكتاب مبين لا يعلم بأمره إلا رب العالمين، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) سورة الكهف

هذا تأكيد إلهى بأنه :

لا السابقون الأولون ممن خلقهم الله وسمعنا عنهم، أولم نسمع.

ولا اللاحقون بالقطع واليقين.

لا أولئك ولا هؤلاء أشهدهم الله خلق السماوات والأرض.. فكيف بهم والحال كذلك أن يشهدوا خلق أنفسهم؟!!.

لذلك كان الباحث فى هذا الأمر كمن يلقى بنفسه فى بحر لجى، عليه أن يتدرب له كل التدريب، وأن يأخذ كل مقولة إنسانية سبقت بالكثير من الفحص والتمحيص والقياس، وقبل هذا وذاك على الباحث أن يستعين بالله الذى نسأله هو سبحانه العون والصواب ونور البصيرة وجلاؤها.. فبيده الأمر وهو على كل شئ قدير.

وحتى لا يغلق باب الاجتهاد على المجتهدين، وتصبح عملية الخلق للبشر كالطلسم، أو كالسراب لا تصل بمن يرتادها إلا إلى الضياع والهلاك، قال المولى عز من قائل فى كتابه المنزل آيات كثيرة عن الخلق وتتابعه فى إيضاح مجمل، ودون دخول فى تفصيلات نقول: وإذا كانت هنالك ملاحظة تقال فهى أن المولى عز وجل لم يذكر فى القرآن الكريم شيئاً عن تاريخ النشأة، تماما كما لم يذكر شيئاً قطعياً عن سنة النهاية أو القيامة، ورغم هذا الحسم الربانى حاول المجتهدون أن يصلوا إلى تحديد عمر الكون وصولا إلى بدء الخلق عن طريق التخمين، وأحياناً عن طريق الاستشهاد بما هو فى غير مواضعه.. لتأكيد نتيجة مسبقة وضعها الباحث قبل أن يبدأ بحثه الذى ينتهى به إلى تصوير الأمر على أنه وصول إلى ذرى لن يصل إليها أحد بعده، وهى منزلقات خطرة، لأن الأمر ينتهى بأبحاثهم دائما إلى الإهمال والنسيان، لأن ما بنى على خطأ فهوى خطأ. ومما يؤكد هذا أنه تتكشف للإنسانية كل يوم حقائق جديدة عن الكون كانت خافيه على من سبقونا، فالاجتهاد الإنسانى اجتهاد محدود ووقتى يقترن بالزمان، ولكل زن أحواله فلا ثبات لحقيقة إلا فى القرآن المبين. كتاب الله الذى أنزله على نبيه الأمين محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وسلام.

فالقرآن الكريم هو كتاب البشرية وهداها حتى يوم القيامة..

وإذا أردت عرض يؤكد انتفاء اليقين فى الأحكام والنظريات الإنسانية فأمامك الآن ما أثاره العلماء حول نقص عنصر خامس من عناصر الجاذبية غاب عن (نيوتن) حين وضع نظريته عن الجاذبية.
ونظرية (نيوتن) هذه ظلت كمسلمة من المسلمات فى نظر الباحثين والعلماء فى ذلك المجال لأكثر من ثلاثمائة عام. بنو خلالها أبحاثهم وأطلقوا أقمارهم الصناعية فى ظلها.. ثم ها هم أولاء الآن يقفون أمام ما أراد المولى أن يظهره مندهشين ومتشككين فيما كانوا يرونه يقينا **(فهو)** سبحانه يخلق ما لا تعلمون.
وهنالك تراجع وانتكاس عن العقيدة الشيوعية ونظرياتها الاقتصادية والاجتماعية فبعد عشرات السنين من الاعتناق الذى كان يصل لحد اليقين لدى الشيوعيين، نجد قادتهم ومفكروهم يتراجعون عن تلك العقيدة، بل يرون أنها تسببت فى إحداث الكثير من الخلل فى مجتمعاتهم، وأيد هذا تلك الثورات الشعبية التى انطلقت بعد طول كبت ومعاناة تعبر عن كراهية البشر العميقة لتلك النظرية. التى تخل بالطبيعة البشرية وما فطره الله عليه.

ونحن كمسلمين لا نفزع أو نهتز لمثل هذه التعديلات أو التراجعات، لأن المولى عز وجل وضع للبشرية الأسس وترك لهم الاجتهاد، فباب الاجتهاد فى الإسلام موجود.
وباب العلم فى الإسلام مرغوب، ولا ثبات فى هذا العالم من حولنا لأنه لا يوجد علم كامل ولا اجتهاد يصل إلى حد المعرفة اليقينية، فلا كمال إلا لعلم الله، ولا كمال إلا كماله **(هو)** سبحانه وتعالى، **(فهو)** الحقيقة الأزلية التى لن تزول، تقدست أسماؤه وعجزت عن إدراك كينونته عقولنا، وعن تدبر كمال علمه أفهامنا:

له الأمر..
بيده مفاتيح كل شئ
يهدى من يشاء
ويضل من يشاء
و(هو) على كل شئ قدير

وإذا كان الخالق قد أخفى عن خلقه تاريخ النشأة، كما أخفى عن علمهم نهاية العالم، فهو سبحانه وتعالى قد أفصح فى كتابه المبين، وقرأنه الكريم عن عدد الأيام التى تم فيها خلق الكون وموجوداته، فى قوله عز من قائل:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤) سورة الأعراف
إذن فهذا الكون جميعه..

وهذه المخلوقات كلها..
ما ظهر منها لعيوننا..
وما خفى منها عن أبصارنا..
قد خلقت فى ستة أيام!!
وهذا الوقت القليل الضئيل الذى استغرقته عملية الخلق بالقياس لضخامتها، ليس بقليل على الله الذى لو شاء سبحانه وتعالى لقال لكل هذا وذاك مما ذكرنا ومما لم نذكر لقلة معرفتنا: **(كن فيكون)** فى طرفه عين، بل فيما هو أقل منها مما لا نستطيع التعبير عنه، من قصر فى الوقت يفوق الطرفة قلة، ويقل عن القلة بكثير: إذن فالأيام الستة كثيرة كثيرة.
فلا يعجز الله شئ .
ولا يعز عنه شئ .
فقدرته سبحانه بلا حدود..
لكن فى اجتهادى ــ مع عجز علمى ومعرفتى المحدودة ــ أن الله حين أطال فى الزمن، وأعطى للخلق أياما ستة، إنما أراد **(هو)** سبحانه بفيض من كرمه أن يضفى على المخلوقات القيمة والتقدير، فأعطاها من الوقت ما أعطى، وأيضا لأنه سبحانه أراد أن يكرم الوقت، ويبين قيمته للحياة الدنيا.
وليوضح الله تعالى لخلائقه فى الأرض من أصحاب العقول ومحبى الجدل، أنه لم يخلق ما خلق لعباً ولا عبثاً قال تعالى :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) سورة الأنبياء
لهذا أعطى سبحانه وتعالى من الوقت ما أعطى.
وهذا كرم ما بعده كرم.
وتكريم للوقت وللمخلوقات ليس مثله تكريم.
ورحمة منه ما بعدها رحمة.
إذن أليس من أبسط قواعد العرفان، وآداب السلوك:
أن نسبح لله؟..
وأن نسجد له؟..
تقديراً لصنيعه
وحسن صنعته
لا أن: نتمرد، ونتنكر .
لكنها حكمة الله .
ولله فى خلقه شئون .
والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .
..فبعض أبناء آدم عليه السلام يتمردون، وينكرون، بل ويكفرون بالله، قلوا أو كثروا عددا، يحرضهم إبليس ومن يلوذ به، أستعيذ بالله منه،أما البقية الباقية من المخلوقات، فما من مخلوق منها إلا ويسبح بحمد الله، قال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(٤٤) سورة الإسراء

بعد هذا وضح الخالق تسلسل الخلق فى قوله تعالى، وقوله الحق :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) سورة فصلت

.. ولقد ورد خلق السماوات دائما فى الآيات القرآنية سابقاً لخلق الأرض، مما يقطع بصحة وعدم جدوى الاجتهاد فيه، والتقديم هنا للأرض فى الانتهاء من خلق كل مقومات الحياة عليها، أما استكمال خلق السماوات فلقد تم بعد ذلك فى قوله تعالى (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**) أى أن السماء كانت موجودة.

ولكن الخالق سبحانه وتعالى لم يكن عظمت قدرته، قد أراد لها أن تكتمل قال تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ(٧) سورة هود

وإذا كانت السماء قد سبقت الأرض، فلابد وأن يكون الماء هو الخلق السابق فى النشأة عن كل المخلوقات من سماوات وأراضين وما عليهن، وهذا يتفق تمام الاتفاق مع كون مصدر الماء وتساقطه يجئ من السماوات لا الأرض وأيضاً من ثبوت وجود عنصر (الماء) فى كل الموجودات وهو ما جاء فى الكتاب المبين، قال تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) سورة الأنبياء

والماء فى أصل نشأته طهور، وهو ما يليق لعرش الرحمن موطئا ومستقرا، تعالى الله خير الخالقين قال :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا(٤٨) سورة الفرقان

كما أن الماء فيما سبق الاستشهاد به من القرآن العظيم يتكون منه كل شئ حى فهو عنصر ضرورى لبدء الخلق. فالماء أساس كل الكائنات من دواب ونبات وجماد فهو الحياة، بل لقد شبهت به الحياة ذاتها فى قوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢٤) سورة يونس

ولنقرأ معاً في تأمل هذه الآيات الكريمات لندرك أهمية الماء ودوره الذى اختصه الله به من دون كل المخلوقات، وكرمه وأضفى سبحانه وتعالى عليه من الصفات فجعله سبيلاً للطهر والتطهر وبالتالى جعل الماء ممهداً للمغفرة بطرد النجس والأدران عن الأجساد الخاطئة، وذلك فى قول الحق سبحانه العلى الغفار :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) سورة الأنفال

وهذا هو الحال بالنسبة لخلق الإنسان، فلقد دخل الماء فى خلق أول البشر آدم عليه السلام – الذى خلق من طين، والطين الذى خلق منه آدم هو خليط من أديم الأرض أضيف إليه الماء، هذا الماء صار بعد ذلك عنصراً أساسياً فى تناسل آدم وأبنائه من بعده، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) سورة السجدة

وقال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٧) سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا(٥٤) سورة الفرقان

فإذا ما كان الماء هاماً، بل وعليه تقوم الحياة بأمر الله وتستمر، فهو كذلك بالنسبة للأرض التى تتشوق إليه فى لهفة لتعطى زرعها وثمرها وخيراتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) سورة الحج
يا سبحان الله. يا سبحان الخالق العظيم.
يا سبحان القادر: يحيى العظام وهى رميم..
ويحيى الأرض وهي موات.. يحييها بماذا ؟ بالماء الطهور ينزله و **(هو)** القادر من السماء بأمره وبمشيئته وفى قمة ما يقنط الإنسان وييأس لشدة الجفاف وتأكيد الأحوال المناخية على استحالة المطر.
فإذا ما أصبح الحال كذلك:
إذ برحمة ربك تدرك الأرض الميتة فتحييها وترويها وتجعلها تهتز طرباً وفرحاً وشكراً لمن أعطى المنان الذى لا يمن عليه..
بل ومن رحمته التى فاقت كل الحدود، أن أوحى إلى الماء أن يتسرب إلى باطن الأرض ليتفجر بعد ذلك عيوناً تفيض بالرحمة على البشر والحيوان والنبات من العطش، قال تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ (٢١) سورة الزمر
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٧٤) سورة البقرة
وهكذا، ولكون الماء عنصر الحياة، ولأهميته للحياة، وحتى يتدبر أصحاب البصر والبصيرة أمرهم وقدرة الخالق، جعل سبحانه وتعالى الماء من فوقنا ومن تحتنا،وأيضاً حولنا، بل وفى صلب أبداننا. أفلا تتدبرون؟!!.
فإذا ما كان أصل خلقك أيها الإنسان طهراً:
فلماذا تبحث عن النجس، وتغوص بإرادتك فى الوسخ؟!
وتزل وتعصى، وتترك الخير إلى الشر؟!!.
وأمام أبواب الرحمة التى فتحها أمامك الرحمن بفتح باب المغفرة للتائبين لا تصب الماء صباً لتغسل الروح والبدن .
ولك يا الله فى خلقك شئون .

الفصل الثالث :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(١٢)

سورة الطلاق

هن سبع من الأرضين
وهكذا نجد تسلسل الخلق كما أراد الخالق للبشر، أن يعرفوا مما يحيط بهم كان:
الماء..
فالسماء.. وهى بعد لم تزل دخان..
فالأرض..
فالسماوات السبع وما حولها وما فيهن.
ثم الأرض وما عليها..
وهذا التسلسل فى تتابعه هو الأقرب والألصق كما جاء فى القرآن العظيم والسنة المشرفة، أما القرآن فقوله تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا(٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا(٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا(٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) سورة النازعات
وأما السنة فهو ما روى عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه جاء إلى النبى وفد من أهل اليمن وسألوا عن أمر الخالق، قال عليه الصلاة والسلام:
" **كان الله، ولم يكن شئ قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب فى الذكر كل شئ** "
(صدقت يا رسول الله ρ)
أما ما جاء وذكر عن الصحابة من أقوال نسبوها، أو على الأصوب نسبها كتاب مغرضون إليهم، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنها فى مجملها تدور حول ذكر الأيام التى خلق الله سبحانه وتعالى فيها الخلائق، وتسمية كل يوم من تلك الأيام، فهى أقوال مدسوسة لا يقرها قلب ولا يستريح لذكرها عقل محب لرسول الله عليه أفضل الصلوات وأذكى التسليمات.
فماذا يفيد الخلائق أن يكون بدء الخلق كان يوم جمعة أو سبت أو غيرهما من الأيام؟؟
وفى ماذا تجدى مثل هذه المعرفة؟
وهل كانت ستضيف شيئا، أو تفتح سبيلاً جديداً أمام اجتهادات البشر؟
لا أعتقد أن هذه المعرفة كانت ستفيد أو تضيف، بل أعتقد أن ذكر ذلك كان سيصرف الكثيرين من الغلاة نحو الانشغال بالتفضيل والمفاضلة بين الأيام، وكل منهم يفضل أيامه حسب هواه، ويرتفع الصوت، وتصخب الحناجر، ويثور الخلاف حول قضية فرعية، ولذلك، ولأن الخالق أعلم وأعرف بعباده، لم تنسب أيام الخلق لمسمياتها، ولم يذكر فى القرآن شئ من هذا، رحمة بالبشرية من جدل عقيم، وكان الإنسان أكثر شئ جدلا.

ويرغم كل ذلك، فلقد وقع هذا الجدل بالفعل بين الأجيال السابقة من علماء المسلمين وغيرهم، وانشغلوا به انشغالاً عظيماً، وألفوا حوله الكتب، وأنفقوا فيه الجهد الجهيد. فماذا كانت النتيجة..؟؟
بالقطع لا شئ ..
فماذا أفادوا ..؟

وها هى ذى الأيام قد توالت والسنين وقد مرت، والقرون وقد عددت، لتؤكد للبشر أنه
لا اقتران بين أسماء الأيام والمخلوقات. فلا الشمس تشرق أيام السبت ولا تشرق أيام الآحاد، ولا الأرض تدور فى أيام وتكف فى أخرى، ولا القمر ولا السحب ولا الرزق ولا الحياة والموت ولا شئ من أولئك وهؤلاء له اقتران مؤكد باسم يوم محدد من الأيام يزدهر فيه أو ينطفئ، ينمو أو ينقرض، فجميعها أزمان الله.

ولو كان هنالك خير فى الاقتران بين الخلائق وأسماء الأيام لذكرت أسماؤها، مثلما حدث من تنبيه ليوم الجمعة. يوم الجماعة لأمة لا إله إلا الله محمد رسول الله فى القرآن المبين:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) سورة الجمعة
ولقد جاء ذكر يوم الجمعة كما قرأتم، من أجل التنبيه إلى أهمية صلاة الجماعة وإقامتها، والاهتمام بها للحظتها وترك ما عداها من أمور الدنيا ومشاغلها.
وكما جاء ذكر الجمعة، جاء ذكر السبت لليهود فى القرآن العظيم، وجاء أيضاً ذكره مقترناً بعبادتهم وعاداتهم، ولم يرد ذكر لهذا اليوم أو ذاك مقترناً بعملية خلق السموات والأراضين وما عليهما وبينهما.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) سورة الأعراف
فالثابت – وثبوته من الإخبار الربانى الذى جاء فى القرآن المبين – أن الأرض قد استغرقت من الوقت ما كرمها الله به، وأعطاه لها لتتميز عن غيرها من المخلوقات كالشمس والقمر والنجوم وغيرها من المخلوقات العلا رغم ضخامة تلك المخلوقات خلقت مجتمعه فى يومين، بينما اختصت الأرض وحدها بأيام أربعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) سورة فصلت
أربعة أيام من وقت الخالق العظيم، واليوم منها كألف سنة مما تعرف فى حساب الأوقات والأزمان.
يا لكرم الخالق..
ويا لعظيم حكمته..
فإنه يعلم – سبحانه علام الغيوب – أن هذه الأرض سوف يرثها صالحون وعصاه .
وأنه سبحانه وتعالى سيخلق عليها بشراً يملك العقل ويملك الخيار والاختيار من دون باقى المخلوقات.
إذن فلتكن أرضه تموج بالمؤشرات التى تدل وترشد وتنم عند قدرة الخالق ليتدبر الإنسان أمرها، ويتأمل شأنها، ثم يخر راكعاً وقد تكشف له ضعفه وهباء حجمه وعجز قدراته أمام عظمة خالقه وخالق كل شئ.
يومان كاملان لكى تكون الأرض أرضاً، ولتكن لنا هنا وقفة يسيرة مع من يقولون إن الأرض نشأت أول ما نشأت فوق ظهر الحوت وأن ذلك مستقى من قول الله تعالى : (**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**) ولا أدرى لماذا تكون النون هنا صوتا ولا تكون حرف قسم كما قال سبحانه وتعالى : (**أ. ل. م.**) ؟..
وهل يحسب الذين قالوا هذا أنهم أمام إنشاء بشرى يخضع لنظريتهم التى تقول : إن المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم ؟!..
إن الخلق هنا يحدثه الخالق.
الخلق هنا بيد (**مالك الملك**) .
وبأمر من يقول سبحانه للشىء (**كن فيكون**)..
إذن فالعقل والقلب معاً يقولان: إن خلق الموجودات كان بالأمر المباشر من الله بالنشأة والتكون والكينونة ..
يا قادر ..
وقدرتك بلا حدود ..
يا آمر..
وأمرك غير مردود ..
قلت للأرض بدءاً كونى فى يومين: فكانت.
ثم نظرت إليها: جهمة لا استواء فيها، قاحلة لا حياة عليها، مهتزة وسط الكون لاثبات لدورانها، فكان أمرك الإلهى بأن : جعلت فيها الجبال رواسى من فوقها، ومهدت أرضها، وباركت فيها لكى تكون جواده بالخيرات والنعم لمن سوف تخلق فلعلهم يشكرون .
ومن عظيم كرمك أن قدرت فيها أرزاق من ستخلقهم فوقها من كائنات، ولم لا وأنت يا رب: الرؤوف الرزاق ؟.. وهم جميعاً مهما عظم أمرهم،

أو صغر حجمهم، ما من شئ منهم إلا ويسبح لك. ويقدسك فى كل حين .. سبحانك .
وهكذا.. نجد أن حياة الأرض ومن عليها مكفولة مقدرة من الخلق جل شأنه أبد الدهر .
أى أن الرزق بيد الله قدره.
وفى اللوح المحفوظ ذكره.
ليس للإنسان وحده.
بل لكل الموجودات: من جبال، وأرض، وماء، ونبات، وحيوان وغير ذلك مما نعلم، ومما لا يعلم بوجوده إلا الله.
إذاً فما بال الإنسان؟..
ما بال العاقل الوحيد..
ما بال من أعطاه صاحب الأمر، الحرية والسيادة على الأرض.
وجعل له عينين، ولساناً وشفتين، وهداه النجدين، ما باله يريد أن يتأله وأن يدعي ما ليس فى قدرته ولا من شأنه. فيظن أمر رزقه بيده، أو بيد هذا، أو بأمر ذاك. أو انه وهو الإنسان الضعيف القنوط يستطيع أو يستطاع به شئ من ذلك، وينسى أن هنالك دائما ما يجب أن يتجه إليه ليذكر ويفيق ويقرأ ويستنير إذا ما ألمت به الشكوك والوساوس ألا وهو كتاب الله الخاتم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) سورة الذاريات
فهل أنت يا إنسان كذلك؟..
هل أنت رزاق، أنت فى غاية الحاجة لرزق ربك؟
هل أنت ذو قوة متين، وأنت إذا ما توقفت ريح داخل أحشائك بكيت وضيعت وعجزت وصرت بلا حول ولا قوة. لأن الحقيقة الأزلية تقول:
إنه لا حول.. إلا بحول الله.
وأنه لا قوة إلا من قوة الله.
فلتهدأ نفوس البشر.
ولا هدوء للنفس إلا بالتأمل فى هذا الخلق الذى خلقه الله.
ولتطمئن يا إنسان، فلا تعبد إلا الواحد القهار، الذى قدر الرزق، ينس شيئا لأنه سبحانه لا ينسى، فالنسيان نعمة منه هو سبحانه اختصك بها أنت، لأنه سبحانه أعلم بضعفك البشرى، لا تستطيع أن تعيش ما كان وما هو كائن وما سوف يكون، بل عليك أن تنسى الكثير لتستطيع أن تستوعب الجديد، ولكى تستمر فى الحياة.
فتأمل ما حولك، وتعمق فى التأمل وأنت تمعن النظر فى كل ما يحيط بك.. لتدرك عظمة الخالق ووحدانيته، وفكر طويلا فى حكمته سبحانه وتعالى التى بنى عليها أمر الله للأرض بأن تكون فى يومين، ثم تثمر وتعطى وتصون فى يومين آخرين، حتى لا تكن عجولاً جهولاً.

ولتكتسب اليقين بأنه ما من دابة على الأرض إلا على الله رزقها.
وأن من يطعمك لا يطعم
فلا تعبد إلا إياه:
الله .. الواحد ..
الواجد .. الرزاق ..
لا إله إلا هو .
فهل أنت مسلمون؟؟
ولا نستطيع أن نتوقف بحديثنا عن خلق الأرض دون أن نتطرق إلى ما جاء في القرآن العظيم والسنة المشرفة من كون الأرض ليست أرضاً واحدة بل هي سبعة أرضين. مثلها في ذلك مثل السموات قال تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(١٢) سورة الطلاق
وجاء عن رسول الله ρ أنه قال :
"**من أخذ شبراً من الأرض ظلما فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين**"
(صدقت يا حبيبي يا رسول الله)
وإذا كان قد ورد على الفكر في هذا المقام وارد، فإنه لا يخرج عن مجموعة من التساؤلات تهوم باحثة عن إجابة بعد لعله تدركها في الأزمنة القادمة إن شاء الله:
هل الأرضين السبع هي مجموعة القارات التي اكتشفنا منها خمساً وما زالت تغيب منها عن معرفتنا قارتان؟؟
هل الأرضين السبع هي تلك الطبقات التي تتكون منها الكرة الأرضية من طين فرمال فصخور، فماء – إن وجد – فصخور، فبترول – إن وجد فصخور، ثم معادن منصهرة،... وهكذا؟؟
هل الأرضين السبع لا يقصد بها هذا ولا ذاك، بلى هي كما قال القدماء كرات أرضية مثل الكرة الأرضية التي نعيش فوقها ويعلم الله وحده ما عليها ومحتواها؟
أما الحقيقة فليست من ذلك جميعه في شئ؟! ولكن الأرضين السبع هي لا تظهر ولا تتكشف لنا إلا بعد قيام الساعة، أي بعد أن ينتهي الخلق الذي نحن فيه ويبعثنا الخالق العظيم في خلق جديد؟..
إن عدم الإفصاح أحياناً رحمة، ورحمة الله وسعت كل شئ، ومن ذلك رحمته بأولاد آدم الذين كرمهم بأن نفخ فيهم من روحه وفضلهم على العالمين.

فلو أفصح سبحانه وتعالى فى كتابه المنزل (قرأنه المبين) عن أمور كثيرة غيبها عنا لفقد الكثيرين منا ثباتهم، ولأصيبت الكثرة من المسلمين الأول بالشك فيما يتلى عليهم من كتاب الله، لعظم ذلك على مداركهم.
وتخيل معى لو أن الله فسر للبشر عملية التفجير الذرى التى وردت فى وصف يوم القيامة من تفجر للأرض وللماء وللموجودات.
ما كانوا ــ المسلمين الأول ــ مدركين إلا الضياع والإلحاد الذى كان سيسلمهم لوسوسة إبليس أستعيذ بالله منه ؟؟
ثم ما ذا كان سيصبح عليه حالهم لو أخبرهم الخالق العليم بأن أحفاد آدم سيصلون لهذا التفجير نتيجة تفتيت النواة؟؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ(١)وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥) سورة الانفطار

وكذلك الأمر بالنسبة لنا الآن لو واجهتنا حقائق ربانية تحيط بنا ولا نستطيع استيعابها ومنها أننا محاطون بأرضين بها مخلوقات أرقى، وأن بعضاً منها يرانا أو يعايشنا أو غير ذلك "ألن نصاب بالذعر ونفقد اتزاننا؟؟
إذن فإن عدم الإفصاح الكلى فى القرآن الكريم رحمة بالبشرية.
ولنتأمل الرحمة والتدرج فى الإخبار فى قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) سورة النحل

لقد ذكر المولى سبحانه وتعالى ما يحيط بأهل الجزيرة وأهل زمانهم من وسائل (دواب) للانتقال. ليتأملوا فيها رحمة الله بهم، وتخفيف المشقة عنهم بتسخير مخلوقات لخدمة مخلوقات أخرى لتسهل لها العيش.
ثم ترك الباب مفتوحاً للاجتهاد والابتكار للقادمين عبر الأزمان بآلاتهم وصواريخهم وما يستجد من اختراعات مستقبلة يعرفها سبحانه ولا نعرف بها نحن أصحاب الزمن الحالى فى قوله تعالى **(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)** فكما سبق وذكر أن المعرفة البشرية مكبلة بسياج الزمن مما فات منه وما هو كائن الآن، بل إن بعض ما فات ما زال خافياً علينا حتى الآن، مثله مثل القادم لا يعلم حقيقته إلا الله.
فالمعارف والعلوم البشرية وكل ما هو من وضع البشر وقتى تتصل دقته وثباته بزمنه ليس أكثر، والأمثلة كثيرة تثبت صدق ذلك، فإذا ما تابعنا تاريخ العلوم فسنجد من علوم البشر ما تم تعديله، وما ألغى بكامله، بعد أن تم التوصل إلى ما يخالفه بل ويناقضه، فالله عنده علم الكمال، ولكن لا يظهر سبحانه وتعالى علمه إلا بما يتناسب وقدرة الإنسان على الفهم

والتحمل. تماما كما لا ينزل المطر وغيره إلا بما تحتمل الأرض، وإن كان جميعه مثبت فى اللوح المحفوظ قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(٢١) سورة الحجر

سبحانك يا خالق، قد أعددت للأمر عدته وهيأت للإنسان معيشته من قبل أن تكون الحياة أو يكون الشر.

وهكذا شاء الخالق العظيم وأذن للأرض أن تكون، وأن تنفصل عن السماء لكى يستكمل للأرض احتياجات من سيعمرها، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ(٣٠) سورة الأنبياء

فلقد أذن الله بالانفصال بينهما فانفصلتا بيسر وأصبحتا كائنين منفصلين. كل يجرى فى فلك بأمر الله "ولتتزين السماء، ولتأخذ الأرض زخرفها" اقرأ معى قول الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا(٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا(٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا(٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) سورة النازعات

سبحانك يا من خلقت فأبدعت.

وأشرت فأوجزت ووفيت.

فيتأمل المتأملون.

وليتدبر المتدبرون.

فهذا الخلق العظيم الهائل مما يحيط بالبشر ما هو إلا للتدبر والتأمل.

فهل أنتم مبصرون؟؟

ولله مسلمون.. مسبحون..

الفصل الرابـع :

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَـــى الْعَــرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَـــاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(٢)

سورة الرعد

ها قد شهد الكون خلق الأرض..
لكنها ظلت جزءاً من السماء العلا كما ذكرنا.
إلى أن جاء الأمر الإلهى فى قوله:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) سورة فصلت
والاستواء هنا ليس كما تخيل البعض هو الاعتدال. بل هو تقريب الصورة بشكل بشرى، فالخطاب هنا لعقول ارتبط تصورها بالأرض وما يحدث عليها، وبالبشر وما هم عليه، فاستوى شأنها هنا شأن (قال الله) فهل الله سبحانه وتعالى بعظمته وشموله (يقول) أو (قال)؟؟
أى مؤمن سيرد بلا تردد: كلا..
فالقول هنا لتقريب المعنى فشأن التعامل بين الرب ومخلوقاته يخص ذاتاً عليا مهيمنة مسيطرة فاعلة. وهل أنت يا بشر مع سيارتك تحتاج لأن تقول أسرعى أو سيرى أو توقفى لكى يحدث ما تريده منها؟
أم أنك تضغط بقدمك، أو تحرك بيدك فيحدث الفعل الذى تريد؟
إننا هنا أمام حديث تتقريبى، وتبسيط ربانى لعباده ممن خلق، وهو سبحانه أعلم بقدرتهم على الفهم والاستيعاب.
والمراد هنا أن نتأمل الطاعة المطلقة، الصادقة من الأرض والسماء للخالق، الاستجابة لكل أوامره ونواهيه، استجداء لرضاه حبا ورهبة من بطش الله وإن بطش ربك لشديد.
وهنا أيضاً دعوة للتأمل فى حال وحال، حال الإنسان المتمرد الجهول الذى يجادل فى الله أشد الجدال، رغم ضالته وقلة شأنه وشأن الأرض بقوتها وضخامتها، أو السموات السبع اللاتى تكمل سماء واحدة فقط منهن حياة الإنسان ويخشاها ويخافها كمجهول لا يستطيع أن يكتشف أغواره. فنراهن ساجدات مسبحات طائعات لله.
فاللهم غفرانك.
اللهم عفوك.
اللهم رحمتك.
يا غفور.. يا عفو.. يا رحمن يا رحيم.

خلق الله الأرض.
ثم فصل بقدرته الأرض عن السماء..
وبعد ذلك أمر السموات فصرن سبعاً وأوصى بما أوحى لكل سماء وزين منهن السماء الدنيا، وهى ما نرى منهن، بمصابيح وحفظاً لما فوقها ولمن خلق أسفل منها.
فى هذه الجمل القصيرة، أبواب وأى أبواب تلك التى تفتحها ليجتهد من خلال تبصرها الإنسان، فيزداد عجزاً وعلماً وإيماناً بقدرة الخالق وعظمته.
أوحينا فى كل سماء أمرها.
يا الله:
يا قادر..
يا عظيم..
فهذا أنت سبحانك.
وهكذا يكون الحال.
وتستقيم الأمور:
(أوحينا)..
مجرد إيحاء ليحدث الفعل، وتكون الاستجابة، ويوجد الخلق والمخلوقات.
وهذه هى القدرة.
وهذه هى صورة العلاقة بين الواجد والموجودات.
فأفق يا ابن التراب واعرف قدر نفسك.
وتأمل خلق الله ومخلوقاته.
لتخرج من هذا الوجود المادى المحدود، إلى وجود لا تحده قيود..
ولا يكون هذا، ولن يكون، إلا بأن تشهد بأن: لا إله إلا الله. عن يقين وحين تصل إلى هذا اليقين الذى فطر الخالق مخلوقاته من البشر عليه من قبل ميلادهم، ستكمل وأنت ترتل القرآن الذى نزل على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وتقول: محمد رسول الله.
خاتم الرسل والأنبياء أكرمنا الله على يديه بالكتاب الخاتم (القرآن العظيم) ومنه نتعلم.
وبه تصلح الحياة.
ونعلم وتتعلم الأجيال..
وكل من قرأ فاهما ازداد علما.
والعلم الربانى فى القرآن العظيم، علم بلا حدود، فهو ينير القلوب والبصائر فتدرك حقائق لا ينتهى أمرها، بل تتوارثها الأجيال لتنهج على نهجها، مواصلة القراءة والاستلهام والبحث فتزداد علماً على علم، وتزداد خشية من الله.
وفى كل عام..

يكتشف علماء الفلك مثلهم فى هذا مثل كل العلماء فى مختلف العلوم أن هنالك جديد، وأن هنالك ما هو أضخم حجما من الشمس، وأن هناك ملايين المجرات والنيازك والشهب، وأن خطأ واحداً كفيل بدمار الأرض، إذا ما حاد مخلوق من تلك الملايين عن مساره ذرة أو توقف عن الدوران لثانية أو أقل.
إذن فلا يستطيع هذا التنسيق ولا يحدث هذه المعجزة المبهرة إلا:
واحد، أحد، فرد، صمد:
لا ينازعه منازع، ولا تشغله زوجة، أو يبحث عن ولد فهو.. لم يلد، ولم يولد، لوم يكن له كفواً أحد فالله قدرة مطلقة بلا حدود.
الله نور. غير ذاك النور الذى نرى بالأبصار، نور يسرى ليشق الظلمات ويتغلغل فى الذرات، ويحيل كل من له شرف إدراكه إلى نور واغتسال وتبتل.
القادر..
الخالق..
أوحى لكل سماء من السماوات السبع أمرها، فخلق فيهن الشمس والقمر خدمة للأرض الضئيلة وللمخلوقات التى تدب فوقها والتى هى أكثر ضآلة من الأرض..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(٢) سورة الرعد
استوت السموات السبع ورفعت بغير عمد نراها. فبصرنا بعد ليس بحديد. بصر محدود لا يرى إلا امتداد لا نهائى للسموات.
وهذا ما قاله الله، وقوله سبحانه وتعالى الحق.
أما الشمس والقمر فكل منهما دور محدد قدره الخالق العظيم بالنسبة للأرض فيما نعلم، وبالنسبة للكون فيما ليس لنا به علم حتى اللحظة.
فالشمس للأرض هى باعثة الدفء والنماء للمخلوقات من دواب ونبات، ومنها يستمد الضوء، وتعرف الأزمان، وتحدد الأيام. فمع شروقها يبدأ يوم جديد.
وأما القمر فهو يشرق بنور ربه عاكسا ما امتص من ضوء الشمس مكتملا فى منتصف كل شهر عربى، معلنا بإشراق هلاله عن بداية الشهر وباكتماله إلى الانتصاف. وهكذا تكون مع ظهور القمر أوائل الشهور. ومع اكتماله انتصافها.

كما ترتبط به حركة المياه فى الأنهار والبحور والمحيطات من مد وجـــزر وإذا ما كان ذاك هو ما يعرف البشر عن دور الشمس والقمر فى حياتهما. فإن الله سبحانه وتعالى قد أكرمهما بجعلهما من مخلوقاته المطيعة البعيـــدة عن المعصية وعن ارتكاب الذنوب والمعاص، قال سبحانه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًـــا غَفُـــورًا (٤٤) ســـورة الإسراء

وكذلك قوله جلت قدرته:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُــلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) سورة الحج

وقد نتخيل أن ما نراه صلباً جامداً لا يتحرك.

يصور لنا هذا فكرنا المحدود.

ولكن الفكر القرآنى يقول بغير هذا.

فما من شئ إلا ويسبح لله

أى ما من مخلوق إلا وفيه حياة: وفية حركة، وله لغته التى لا يدرك أمرها إلا الله وملائكته وأولوا العلم ممن أحبهم الله واجتباهم.

يا سبحان الله.

ويا لعظمة الله.

ويا لروعة الصورة بعد الاكتمال..

كون عظيم فسيح.

على قمة القمم..

وفوق الذرى..

وهذا ما يستطيع قلم الإنسان أن يقول تعظيما وإعلاء وتقـــديراً وخـــضوعاً وعرفاناً بعظمة خالقه:

على قمة القمم، وفوق الذرى .

وفى كل كل ذرة .

وما هو أصغر وأقل بكثير من الذرة .

يحيط ويتمثل فى موجوداته :

قادراً

مسيطراً..

حاكماً..

أمراً ولا راد لأمره ..

والمخلوقات بين يديه من ملائكة وماء وسماوات وأرضين جميعها طـوع بنانه .
كل فى موقعه كما أراد له الخالق لا يحيد إلا بمشيئة الواحد، وهل للموجود أن يعصى من أوجده ؟..
وكل يسبح حمداً وشكراً، فى كل حركة مهما ضؤلت، وفى كل سكنة مهما قلت فهو أمر مقدر، وتقدير من مخلوقات الطاعة لقدرة خالقها ومهما طالت بها الأجيال وتواصلت السنوات من آحاد لعشرات لمئات لألوف لملايين ثم لمليارات..
ورغم كل ما مر من أعمار على الكون:
.. لم يتغير شئ
فالشمس لم تضعف أو تخلف موعداً.
والقمر لم يكف عن الدوران.
والأرض تخرج ماءها ومرعاها.
والكواكب الأخرى كل يسعى فى مساره كما قدر له الله.
والنهار طل وما زال يأمر الله ينسلخ عن الليل، والليل ينسلخ عن النهار.
والكل..
هذا الكل فى الكون..
يسبح ويسجد للخالق العظيم، تدبر معى قول الخالق العظيم:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَـقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)
سورة الحج
والآن وقد اكتملت قدرة الخلق للخالق بكمال المخلوقات
لابد وأن يثور سؤال:
ما دور الإنسان الذى لم يخلق؟
ما قيمته أمام كل ما خلق الله من خلق :
السموات..
والأرضين؟..
والكل – بدءا بالملائكة لله طائعين ..
عارفين بقدر الخالق العظيم..
مسبحين بحمده ليل نهار..
لا يغفلو.
ولا يذلون.
ولا يملون.

إن دور الإنسان الذى لم يخلق بعد بالقطع لن يزيد عن دور المتأمل لكل ما سبق من مخلوقات. ليأتيه اليقين بوحدانية الله، وقـــدرة الله، وعظمـــة الله، وفضل الله عليه وعلى الكون جميعاً، فيخر ساجداً، ويسهر عابداً، ويـــسبح لرب العالمين:

أن رب: سبحانك ما خلقت هذا باطلاً.

لك الحمد ولك الشكر.

وأنت على كل شئ قدير.

أكرمتنى بكل هذا الفيض من المخلوقات والخلائق التـــى يتحـــدث خلقهـــا بقدرتك:

من سموات تموج بالمعجزات والآيات، ومـــن أرض تفـــيض بـــالخيرات والنعم، وبعد أن ذللت صعابها، وأخرجت ماءها وأنبت مرعاها، وأظهرت صباحها بعد ليلها، وزينتها لتنتظر القادم الذى سوف يعمرها..

الجد الأول.

والأم الأولى.

آدم.

وحواء.

الفصل الخامس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَــــهُ كُــنْ فَيَكُونُ (٥٩)

سورة آل عمران

آدم.. أبو البشر

من طين الأرض خلق الله آدم أبو البشر عليه السلام.
فى الجنة تم الخلق.. وتمدد الجسد الضخم بلا حراك، فقط قيل إن طوله كان ستون ذراعاً.
كان كل من شهده ممن سبقوه فى الخلق من ملائكة وجان، يتعجبون من هيئته: فإلى ماذا سيصير أمر هذا الطين اللازب؟.. وهم قد خلقوا من: نور ومن: نار.
يوما بعد يوم..
أخذ الطين يجف..
أصبح فخاراً صلباً..
لكنه ما زال بعد بلا روح..
ساكن لا يتحرك.
اقترب منه إبليس، راح يتأمل تكوين الجسد الرهيب الغريب. فى فزع لوما وجد الجسد لا تصدر عنه حركة، ولا ينبئ بحياة. ركله، فصدر من الجسد صوت أجوف مصلصل فأصيب إبليس بالهلع، لكنه أدرك بعد لحظات أن الصوت صدر نتاج ركلته، ولم يكن الصوت عن الجسد المسيحى، فعاود الركل، فعاد صوت الصليل يرتفع إلى أن اطمأن لسلامة استنتاجه، وهنا تلصص إبليس داخلا من فم آدم، وجاس فى داخله ما بين الصدر وتجويف البطن ثم خرج من دبره وقد ملئ كبراً وقال للملائكة مفاخراً بذاته:
إنه أجوف، ضعيف، وإن أرادنى بسوء لأهلكنه.
لم تعقب الملائكة. إنهم ينتظرون الإفصاح الإلهى. فهم عباد الله مطهرون يخافون ربهم ويطيعون الله ما أمرهم ولا يستكبرون.
وهذا الممدد أمامهم من خلق الله..
والله به أعلم، ومحال أن يستهينوا به كما فعل إبليس.
وحين أخبرهم الخالق العظيم أنه سينفخ فيه من روحه، وجاعله فى الأرض خليفة تساءلوا متخوفين :
– يا رب أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟؟
فلقد سبق للجن أن سكنت الأرض بعد دحيها. فأفسدوا فيها وتناحروا وسفكوا الدماء ونشروا الخراب والدمار.

وقد شاهدت الملائكة أفعالهم أثناء سريانهم ما بين السموات والأرض، إلى أن أمرهم الخالق بطرد الجن وتطهير الأرض منهم، وكأن هـذا التطهيـر كان استعداداً لاستقبال الوافد الجديد الذى سيعمرها بنسله إلى يوم القيامة.
وأمام قهر الملائكة للجن فرت قلولهم إلى بـاطن الأرض وقمـم الجبـال وسكنت الوديان البعيدة والجزر النائية، ولم يعد للجن على الأرض سلطان.
لهذا كان تساؤل الملائكة ناتج عن استرجاع لصورة ما حدث سابقاً علـى الأرض.
وهو ما يؤكده قول المولى عز وجل: " **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُـونَ** ". أى أن الملائكة ليس لديهم علم بمستقبل الأحداث، فهذا هو الغيب ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.
فالله يعلم – والملائكة لم تكن تعلم – أنه سيكون من بين ذرية آدم أنبيـاء ورسلا لو خيروا بين متاع الدنيا وبين حبهم لله لاختاروا المـوت جوعـاً وعرياً على أن يغضبوا ربهم.
وأنه من بين الإنس سيكون هناك العابدين الذين يقومون الليـل مـسبحين راكعين ساجدين قانتين لله. وأن أدم الذى خلقه العالم العليم سـوف ينـسى وخطئ ويبكى نادماً مستغفراً ربه خوفاً من غضبه أو عدم رضاه، خـشية ورهباً وحباً من المخلوق الفاهم لضآلة قدره وقدرته لخالقه الذى بيده أمره وأمر الكون وما وراء الكون، وهو سبحانه وتعالى على كل شئ قدير.
لذلك سجدت الملائكة لآدم طاعة للأمر الإلهى حين نفخ فيه الله من روحه فدبت فى الجسد المسجى الحياة.
أما إبليس فلقد كان نفراً من الجن صلح حاله، وبعد عن فساد قومه وتقاتلهم أيام أن كانوا على الأرض، وعكف على عبادة الله مخلصاً، فـزاد قـدره، وعظم شأنه بين الملائكة، وصار من أهل الجنة المكرمين.
لهذا فإنه حين أمره رب العالمين بالسجود لآدم تقديراً لقدرة الله على الخلق تغلبت طبيعة إبليس على ما أصبح فيه من تقوى ملائكية، فعصى وتمـرد وقال محتجا:
– أنا أفضل منه. خلقتنى من نار. وخلقته من طين.
وحقيقه الأمر أن العصيان لم يكن سببه ما صدر عن إبليس من قول ولكن إبليس كان حاقداً على آدم لأن الله فضله على قومه من الجن. وها هـو ذا الأمر الإلهى قد صدر بأن يورث آدم الأرض ويخلف فيها، بينمـا قبيلـة إبليس تسكن الدرك الأسفل منها.
لهذا لم يسجد إبليس لآدم، وفضل أن يخرج من الجنة مذموما ملعوناً علـى أن ينفذ الأمر بالطاعة لهذا الوارث لأرض كانت الجن المسيدة عليها.
وكل ما طلب إبليس أن: رب أنظرنى إلى يوم يبعثون. فقط أن لا يهلكه الله من أجل أن ينتقم من آدم وذريته مقسما لـرب العـالمين: لأقعـدن لهـم

صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين.
إذن ومنذ يوم مبعث آدم والجن لا شاغل لها إلا إفساد البشر، والسعى بهم إلى موارد التهلكة والضياع، بإفساد العلاقة بينهم وبين الخالق.
ورغم تحذير الله لآدم فى قوله بكتابه العظيم:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا(١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إِبْلِيسَ أَبَى(١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى(١١٧) سورة طه
يا الله ما أعظمك.
ويا إنسان ما أضعفك.
فى قرآن الله كتابه العظيم – كل أمر واضح وضوح الشمس، بلا تجهيل وبلا لبس.
فها هى ذى آفة الإنسان الكبرى: النسيان تجره إلى الشقاء:
" **عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ** "
نسى تحذير الخالق له من عدوه، رغم وضوح التحذير، وجلاء القضية. وتبيان قصد إبليس من الغواية، وهو إخراج آدم من الجنة.. ليشقى بنزوله إلى الأرض، بل لقد أرى آدم بعينيه وسمع بأذنيه ما قال إبليس عنه محقراً لمكوناته الطينية مفاخراً بمكوناته النارية ثم رافضاً الاعتراف بآدم.
ورغم هذا نسى وما زال..
– وقد يسأل سائل:
– وهل يعقل أن يسعى إبليس لتمكين آدم من سكنى الأرض،وهو من أخذته الغيرة من أجل بنى جنسه وغضب لهم. واستحق لعنة الله والطرد من الجنة؟؟
والإجابة ببساطة شديدة، هى أن المولى عز وجل قد أخطر وأعلم الملائكة بأنه جاعل آدم فى الأرض خليفة. فآدم هابط إلى الأرض سواء طالت به الإقامة فى الجنة أم قصرت. ثم لماذا يترك إبليس عدوه ينعم بالجنة التى حرم هو منها ومن خيراتها، ولا يسرع بإخراجه منها ليحرم من النعيم وليثبت إبليس لذاته إنه قادر على إغواء الأول للبشر.
ولنعد لأصل الأحداث وقد اكتمل لآدم الوجود. وأصبح فى الجنة حيران يبحث عن أليف. فخلق الله من نفس آدم حواء ليسكن إليها، ولتؤنس وحدته، ثم خاطبه سبحانه وتعالى قائلا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ(٣٥) سورة البقرة

طاف آدم تصحبه حواء بأشجار الجنة وإنها بالقطع أحسن بكثير من أشجار الأرض التى نحيا عليها الآن، فأكلا وشبعا، فالخير وفير سهل المنال فلا تعب ولا شقاء، ولكن هل يتركهما إبليس، وهو لم يكن الغفران له مطلب حين توعده، المولى بالهلاك وطرده من الجنة، بل كان مطلبه أن ينظر حتى يستطيع أن يفتن نسل آدم ويطاردهم بالهلاك والإفساد حتى يحرمهم من رحمة الله والجنة، ويجعلهم وقوداً مثله لنار جهنم.

والأهم من هذا: هل يظلان هكذا فى الجنة ولا يتحقق ما كتب فى أم الكتاب من أن آدم وحواء هابطان إلى الأرض؟؟.

إنه قدر نافذ، ونزولهما إلى الأرض أمر وارد، بل ومحتوم.

أما الذين يلومون على آدم أو حواء استماعهما لغواية الشيطان فبسطاء التفكير. فالشيطان هنا هو الوسيلة للغاية التى هى فى النهاية مشيئة رب الكون. ولقد شاء سبحانه وتعالى أن تكون حياة آدم وحواء ونسلهما مما خلقا منه:

والمصدر كان التراب.

والتراب جئ به من الأرض..

فمن تراب وإلى تراب..

ولتكن الأرض حياة وموتاً.

ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين.

وهناك كثرة من قدامى الباحثين فى هذا الأمر، قد أتعبهم الوصول إلى الكيفية التى وصل بها إبليس إلى الجنة، وقد طرد منها، حتى يستطيع أن يغوى آدم وحواء ليأكلا من الشجرة التى لا يجب أن يقرباها. قيلت اجتهادات كثيرة، منها تسلل إبليس إلى الجنة، وكان الملائكة وحاشا لله غفل، ومنهم من قال إنه عبر إلى الجنة مختفياً داخل جوف الحية وغيره.. وغيره كثير.. وهى أمور غريبة مستغربة..

ولا أدرى لماذا الجدل والمشقة والقرآن العظيم يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(١) مَلِكِ النَّاسِ(٢) إِلَهِ النَّاسِ(٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) سورة الناس

فإبليس أعطاه الله القدرة على أن يوسوس: ويوسوس مباشرة وعن بعد، أو من خلال أناس يسيطر عليهم فيوسوس عن طريقهم من قرب، لأنه

يختارهم من بين المقربين إلى من سيوسوس إليه. ليكونوا مـؤثرين فيـه عارفين بمواطن ضعفه التى سينفذون إليه منها محققين الغواية.
وبهذا نجد أن وسوسة إبليس لآدم وحواء لا تدخل فى نطاق الاجتهاد طالما كان هناك نص قرآنى ييسر عملية الاستجلاء والاستدلال.
وصل إذن إبليس لآدم وحواء واستطاع غوايتهما بأن يأكلا من الشجرة التى حرمها الله عليهما تحت دعوى أن الأكل منها سيجعلهما من الملائكة.
"ما نهاكما ربكما أن تأكلا من هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين"
وما إن أكلا من الشجرة حتى تساقط عنهما لباس الجنة، وكشفت عوراتهما. فطفقا يخفيانها بورق الجنة. وما تنم عنه الآيات ولعفة الحـوار الكتـابى ورقيه وسموه فى تناوله كل ما يخص العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة نجد التعبير يقول) **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَـا مِنْ سَوْآتِهِمَا** وما وورى عنهما كان قبل ودبر كلاهما، وكانت أول علاقـة جنسية بين الرجل والمرأة على مدى تاريخ البشرية، ولأن هـذه العلاقـة تجعل الانسان محتاجا للتطهر، ولأن الجنة لا يسكنها الا الطاهرين، كـان ولا بد وأن يخرجا منهافدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٢٢} **سورة الأعراف**
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ(٢٠) سورة الأعراف
ونفذت مشيئة الله.
بعد أن أسعد أبو البشر وأمهم فى خيرات الجنة، لا يجوعا فيها ولا يعريا، وأخذهما بالرأفة فى بداية حياتهما – وهو الرؤوف الرحيم – فلم يرم بهما إلى شقاء الأرض مرة واحدة فيقنطا، بل أخذهما بالتدرج فى كـل شـئ. فعرفا الطعام كأحسن ما يكون الطعام، وعرفا الأنـس حـين يجتمعـان، والوحشة والوحدة حين يفترقان. وتعرفا على مكوناتهما الجسدية فى أبهـى صورة دون إفرازات، ولا فضلات، ولا روائح كريهـة مـن عـرق أو غازات، ففى الجنة لا نصب ولا شقاء بدنى، فالأمور هنا متعـة للآكلـين وللشاربين وللسارين والنائمين والجالسين بعيداً عن عناء الدنيا وقذارتها.
وجاء الأمر الربانى
اهبطوا منها جميعاً
والهبوط هنا يشمل من كانا فى الجنة، ومن أورد النار وهو إبليس اللعين.

ولأن إبليس ما زال وسيظل، حاقداً متكبراً كارهاً لبنى آدم فإنه لم يبد ندما أو تراجعاً عن فعلتيه الكريهتين :
– رفضه السجود حين أمر به من رب العالمين.
– ووسوسته لآدم وحواء وقسمه الكاذب لهما بأن أكلهما من الشجرة المحرمة سوف يجعلهما ملكين.
أما آدم وحواء فلقد فطرا على طاعة الله. لذلك فهما نادمان على خطيئتهما الأولى يستغفران ربهما:
" **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ** "
ولأن أبواب الرحمة عند الخالق مفتوحة دائما للتائبين. فهو الرحمن الرحيم الغفور:
اجتبى الله آدم فتاب عليه وهدى. وقبول التوبة هنا من آدم يحمل ضمناً قبول التوبة من حواء وإن كان الخطاب من الله سبحانه وتعالى يوجه دائما لآدم، وذلك لقوامة آدم على حواء ومسئوليته عنها وتبعيتها له، ومهما قيل حول هذا الموضوع أو سيقال. فهذه فطرة الله التى فطر البشر عليها ولن تستطيعوا أن تغيروا خلق الله.
هبط آدم إلى الأرض..
فوجد نفسه بعيداً عن حفيف أجنحة الملائكة.. بعيداً عن أصوات تسبيحهم للملك القدوس، وهم يطوفون حول العرش.
انتاب آدم شعور جارف بالوحشة والشوق لتلك العبادات التى تشبع فطرته كإنسان مؤمن بالله، لا يجد الطمأنينة إلا بذكر الله تقديساً وتسبيحاً وحمداً، ولكن أين مكان الطواف..؟ وأين يكون المطاف؟
دعا آدم خالقه: أن رب، لقد حرمت من أعظم ما رأيت من الجنة. فإذا كنت رب قد كتبت على شقاء الدنيا، فلا تحرمنى رب من عبادتك والاطمئنان بذكرك.
هنا أوحى إليه الخالق الكريم أن يجه إلى الكعبة ويطوف بها كما تطوف الملائكة بعرش الخالق العظيم ويقال والله أعلم أن الكعبة كانت فى ذلك الزمان ياقوتة ضخمة تشع نوراً.
وجاء خلق الكعبة المشرفة ببكة حيث صرة الأرض، فهى نقطة الوسط للكرة الأرضية، ولقد كانت بكة أول مكان على الأرض استوى ودحى، فكرمها الله ببيته الأول كما كرمها بخلقه الأول من البشر فكانت مهبطاً لآدم وحواء.
وما يؤكد هذا أنه حين بدأت عمليات توسعة الحرم المكى فى القرن الحالى الرابع عشر الهجرى، وعلى عمق يزيد على العشرين متراً أخرجت الحفارات طيناً لاذباً. وهو مما يدل على أن هذا المكان هو فى الأصلى أرض زراعية شديدة الخصوبة والبناء، ثم فعلت بها عوامل التصحر فعلها،

وذلك ما يجعل الاعتقاد بأن أول بشر هبط إلى الأرض هبط بمكة قريبـــا، بل لصيقاً بالعقل، كما هو محبب ومقبول أشد القبول من القلب، وخاصة إذا كان شرف حضور هذا الخفريات.
لذلك فقد اختصت مكة على مدى تاريخها برعاية الله وحفظه، كما اختصها سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام بدعائه:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَـــنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْـــطَرُّهُ إِلَـــى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦) سورة البقرة
ولماذا لا وبها بيت الله، حيث تطوف به جموع المسلمين من كـــل البقـــاع ومختلف الأجناس تحفهم ملائكة الرحمة، كما اندحرت على أرضها آخـــر معاقل وثنية العقل وانبثاق النور الخاتم بمبعث محمد بـــن عبـــد الله عليـــه الصلاة والسلام فوق أرضها، ومن بين أهلها، ونزول جبريل عليه الـــسلام لسمائها حاملا كلام الله وكتابه الخاتم، كتاب كل العصور لهدايـــة البـــشر. حتى تقوم الساعة ويقبض الله الأرض وما عليها.
فأى تكريم أعظم من هذا التكريم؟..
وأى شرف أعظم من هذا الشرف اختصت به أية بقعة من بقاع الأرض؟..
سبحانك اللهم وتعاليت..
تخص من تخص من الأماكن ومن البشر.
تعز من تشاء..
وتذل من تشاء..
وأنت يا الله على كل شئ قدير.
خلقت الكون من فضل وجودك.
وخلقت الملائكة الكرام من نور..
وخلقت الجن من مارج من نار.
وخلقت آدم من تراب.
وخلقت حواء من صلب آدم.
وبعد هذا
ها هم عبيدك يعجبون فيشركون.
لأنك يا الله خلقت ولداً من غير أب..
وآدم يا رب لا أم له ولا أب..
وها هو ذا قد استقر به المقام ومعه زوجة على الأرض، مغـــادراً دار الراحة والأمان، هابطاً إلى دار الكدح والشقاء، يعمل ويشقى ليوفر لنفـــسه وزوجه سبل استمرار الحياة ترشده إلى ذلك ملائكة الرحمن.
فيزرع الحنطة..

ويضرع إلى الخالق أن ينزل المطر.
ويهرول بين الصخور وراء الحيوانات..
وحين يجد حيوانا أضخم منه وأقوى يخر ساجداً للرحمن يطلب العون والغوث.
ثم ها هو ذا يتحايل ليصنع لنفسه لباساً من جلد الحيوانات ليستر عورة حواء، ويستر عورته هو أيضا بعد أن جفت أوراق الشجر.
وإذا ما اشتدت عليه الشمس لجأ إلى الظل، فإذا ما غادرة الشمس وحل الظلام وطاردته وزوجه برودة الجو لجأ إلى الجبل بحثا عن كهف يأويهما.
بلا تأفف..
ودون قنوط..
وفى صبر عظيم..
كان أدم عليه السلام يمارس حياته الجديدة ويحاول جهده أن يجنب زوجه عنتها ومشقتها:
ولما لا؟
.. أليس أدم نبياً؟!
والأنبياء والأتقياء هم أهل الصبر، يحبونه لأنه إختبار من ربهم، يعلمون أن الخالق يعد لهم خير الجزاء عن صبرهم.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) سورة البقرة

هكذا كانت الحياة فى أول نشأتها على الأرض.
وهكذا كان حال الأب الأول والأولى لكل البشر..
وعن بعد بعيد..
كان إبليس يطوف بآدم وحواء..
لا يستطيع أن يقترب..
فلقد استوعبا درس الغواية..
وذاقا مرارة الاستماع إلى وسوسته..
وأيقنا من كون تحذير الخالق العظيم لهما يقيناً يجب أن لا يغفلا عنه ويكفى أن شقاءهما سببه أنهما لم يكونا ذوا غزم فنسيا أن إبليس للإنسان.. عدو.

الفصل السادس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا(٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا(٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا (٦٥)

سورة الإسراء

إبليس.. أول العصاة

إبليس..
أستعيذ بالله العلى العظيم منه، ومن قوم إبليس من الشياطين فهكذا أمرنـــا خالق الخلق – وهو الأعلم بخلقه – فى قوله:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّـــهُ سَـــمِيعٌ عَلِـــيمٌ (٢٠٠) سورة الأعراف
فالله هو المعين..
وهو سبحانه القوى المهيمن.
ولا حول ولا قوة إلا به..
هو الله، العلى القدير..
به يستعان، وهو الرحمن الرحيم..
ومن رحمته تعالى أن جعل عالم الجان عنا خافياً، بل وحفظنا من تسلطهم بأن ألهمنا، كما ألهم أم مريم ابنة عمران أن تعوذ بالله وتدعوه كما قالـــت: وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم.
فاللهم إنا نعوذ بك من الشيطان الرجيم.
اللهم أعذنا.
اللهم آمين.
هكذا نستفتح القول عن هذا العالم المحيط بنا، المجهول لنا، الـــذى لانـــراه وإن كان أهله يروننا قال تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَـــرَوْنَهُمْ إِنَّـــا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) سورة الأعراف
والشياطين هم من عالم الجان، وهو عالم أسبق فى الخلق من عالم الإنـــس فترتيب المخلوقات حسب الاستلهام القرآنى كان:
الملائكة..
الجان..
الإنس..
والله يخلق ما لا نعلم، وما لا تعلمون.
أما مما خلق الجان، فلقد ذكر الخالق العظيم، وقوله الحق:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ(١٥) سورة الرحمن
وعن السيدة عائشة رضى الله عنها، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:
"خلقت الملائكة من نور..
وخلق الجان من نار..
وخلق آدم مما وصف لكم"
ومن هنا كانت الجان شفافة الأجسام، فهى أجسام موجودة، ولكن العين البشرية لا تستطيع رؤيتها، وإن كانت الجان تستطيع ذلك، فهم بالنص القرآنى:
" **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** "
هم يروننا..
ونحن لا نراهم..
ولهذا كان جهلنا بأمرهم، مع عدم قدرتنا على رؤيتهم أو التعامل معهم وقدرتهم على التعامل معنا عن طريق اختراقهم لعالمنا وتجولهم فيه دون قيد أو مانع إلا الحفظ الربانى لعباده المؤمنين.
وهذا ما يهول صورتهم لدى البعض من ضعاف الإيمان، وهو أمر فيه بعض الحقائق التى تمهد لمنطقهم، وتجرهم للمنزلق.
فالجان تتفوق على الإنسان بطبيعتها التى خلقت عليها والتى تمكنها من الطيران واختراق الحواجز المادية فلا تحول بين حركتها جبال أو مبان.
كما أنهم يتميزون بالقدرة على التقمص والوسوسة.
وهذا جميعه مما لا يستطيعه إنس بقدراته الجسدية المادية التى خلقه الله عليها، وإن ميز الإنسان بقدرته على الابتكار والاختراع وتسخير العناصر المادية التى تحيط به لكى تخدمه وتسهل له حياته، كما أعطى الخالق العظيم لأبناء آدم إمكان تسخيرهم للجان والانتصار عليهم بقوة العقيدة الإسلامية، لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل للجان سلطان على الإنس المؤمنين، ولقد جعل لنبيه سليمان عليه السلام القدرة على قهر الجان وتسخيرهم لخدمته ومكنه منهم، ومن خلال هذا التمكين تكشفت حقيقة هذا العالم المجهول، وقدرات مخلوقاته على الفعل:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣) سورة سبأ

بل إنهم يأتون – كما قلنا – بأفعال لا يستطيعها البشر كالغوص فى أعماق البحار العميقة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) سورة الأنبياء

وإذا كان الإنسان قد استطاع بعد كل تلك الآلاف من السنين، وعبر تواصل علوم الأجيال البشرية أن يغوصوا بمعدات فى أعماق البحار وأن يبنى ويشيد بواسطة آلات عملاقة. فإنه حتى الآن لا يستطيع أن يأتى بما قال به عفريت من الجن عن قدراته كما أخبر القرآن العظيم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(٣٩) سورة النمل

بماذا يأتى؟

بعرش بلقيس..

الذى زخرف وزين..

وبعدت به المسافات..

يستطيع العفريت وهو نوع من الجان أن يحمله ويأتى به مخترقاً الوديان والجبال والأنهار والبحار فى لحظة لا تزيد فى تقديرها من الوقت عن قيام القاعد من مكانه؟

يا لله..

ويا لقدرة الله..

وعظمة هذه القدرة التى تمكن المخلوق الضئيل من فعل هذا.

وإذا كان علماء الإنس حتى الآن لم يقدروا على هذا الفعل بينهم، فهناك من هو أقوى وأشد وأسرع وأذهل من العفريت، ذلك هو عبد الله الصالح الذى يستطيع بقدرة الله وبإذن الله أن يقول للشيء (كن فيكون).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(٤٠) سورة النمل

وهكذا يستطيع الإنسان بعبادته وحسن سلوكه والتزامه بتعاليم ربه، أن يقهر علم العلماء، وأن ينتصر على كل المخلوقات بأمر الله الخالق العظيم.

فلا تخف يا ابن آدم من الشياطين.

ولا ترتعد لذكرهم.

وأعلم أنك الأقوى بإيمانك..

وأنك الأقوى بعبادتك خضوعك لخالقك.

فإذا ما كنت عبداً شكوراً.. عارفاً.. عابداً.. قانتاً.. مسلماً لله أمرك..

فإن الله لا ينساك..

وان الله حافظك..

فها هو ذا رب الخلق يخبر فى قرأنه العظيم عن أمرهم، ويكشف سترهم، ويلزمهم قدرهم، لأنهم ما خلقوا إلا لما خلقت له أنت يا أنسى وهو عبادة الخالق العظيم، وهو ما سبقك إليه الملائكة الأبرار الكرام الذين يطيعون اله ما أمرهم، وهم عن عبادته لا يكفون للحظة واحدة، ولا يستكبرون، عليهم سلام الله ورضوانه.. فالمخلوقات جميعها ما خلقت إلا لعبادة الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(٥٨) سورة الذاريات

فالجان ضعاف مثلك.

علمهم محدود مثلك.

ما يعلمون إلا ما يطلعهم عليه الخالق.

وأقوى دليل على ذلك، ما حدث عند وفاة سيدنا سليمان – عليه السلام – فلقد ظلت الجان يعملون خائفين من مخالفته. ولقد مات عليه السلام واقفا وقد استند إلى عصاه، وظل هكذا ما شاء الله له أن يبقى، إلى أن جاءت دابة الأرض (السوسة) فأعملت أنيابها فى العصاة نخراً فانكسرت وخر سيدنا سليمان على الأرض..

وانكشفت الحقيقة..

لقد مات سليمان..

مات منذ أيام وأيام.

وأصحاب الكبر والمعصية جهلاء غافلون..

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يلزم الجان حدهم، ويحطم غرورهم، ويكشف غفلتهم.. وباطل كبرهم.. وجهلهم بالغيب.

فقال سبحانه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(١٤) سورة سبأ

والجان..

والإنسان..

هم دون كل المخلوقات الذين أعطاهم الخالق حرية اختيار السبيل، وفتح أمامهم باب الاجتهاد فى عبادته وأيضاً فتح أمام العصاة منهم باب التوبة والمغفرة وجعل الكون يحيط بهم شاهداً بما يحوى من المعجزات. بل جعل المعجزات فى أنفسهم، ليتأملوا فى قدرة الخالق العظيم فيزدادوا إيماناً بقوة الخالق وقدرته وإعجازه.

وإذا كان إبليس وقبيله قد توعدوا البشر بالشر وبالإغواء وتزيين المعصية لهم.

مظنة أن خلق آدم – الأب الأول للبشرية – كان سبباً فـي شـقاء إبلـيس وطرده من الجنة لرفضه السجود.
فإن هناك من الجان الصالحون والطالحون، المسلمون والكفار، الطيبـون والأشرار.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا(٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا(٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا(٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعْ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩) وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا(١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا(١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥) وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا(١٧) سورة الجن
هؤلاء هم الجان يتحدثون حين ظهر دين الحق واستمعوا إلـى القـرآن العظيم بصدق العبد الخاضع لربه، فيكون الحديث هو الصدق، ويتراجع أما القادر العظيم الله الواحد العالم بما تخفى الصدور.
يقولون: إنهم وثقوا أمام الإعجاز القرآنى من أنه من عند الله، فأمنوا بـه، وأعلنوا أنهم لن يشركوا بربهم أحداً، أى أنهم وإن كانوا يدعون أعـداءهم من البشر للشرك والضلال فإنهم – الجان – لا يفعلون هذا ولا يعتقـدون فيه.
فحذار..
حذار..
من منزلقات الدعوة الشيطانية للكفر ولإغضاب الخـالق ولتـرك عبادتـه وتقديسه.
ثم ها هم أولاء يتبرءون من سفيههم الذى وسوس لأهل الشرك البشر بـان الله – وحاشاه – قد اتخذ صاحبة له أو ولداً.
وأن من قال منهم ذلك الذى قيل عن الله كذباً وبهتانا وكفـراً. فإنمـا قـال سفيههم ما قال ظانا أن الله سبحانه وتعالى لن يبعث رسولا بقرآن عربـى يكشف كل ما نفثته الشياطين فى صدور الضعاف من البشر من أكاذيـب وضلالة، راحوا يروجون لها.

ثم إذ بالخالق العظيم يحبط أعمالهم. ويستمع الجان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتلو القرآن. فيعترفون بكذبهم وبصدق ما أنزل على رسوله الكريم الصادق الأمين.
وهؤلاء الجان وقد أصبح بعضهم حائرون لا يدرون أى سبيل سيسلك بالناس من سكان الأرض.
وهم فى هذا جميعه تماما مثل الإنس سواء بسواء.. فلا فضل ولا امتياز، فالحياة والموت وحرية الاختيار ثم الحساب والمال من جنة ونار، فكلاهما وارد مقدر وكائن.
فالجان مثل البشر، يحيون وتزوجون ويتناسلون ويتفقون ويختلفون ثم يموتون ولكن كم تكون أعمارهم؟
فهذا يعلمه الله وحده. ولكنهم بالقطع أمم تعيش وتفنى.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنْ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ(٣٨) سورة الأعراف
والجان غير الصالح من عشيرة إبليس، ليس لهم سلطان على البشر، لأن كيدهم وقدرتهم على المؤمنين من الإنس ضعيفه، وهكذا جعلهم الله الخلق العظيم رحمة بالناس.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا(٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا(٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا (٦٥) سورة الإسراء
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) سورة النحل
ولكن، وكما ورد فى القرآن العظيم، فإن للشياطين أنصاراً من الإنس يتلبسونهم ويوسوسون لهم ويأزونهم أزا، وهو لا يكونون قط إلا من بين المشركين، ولكى نتبين من يكون هؤلاء من بين الإنس الذين يكفرون بالله ويخضعون للطاغوت الذى أقسم بين يدى الله أنه جاعلهم من الغاوين لنقرأ معاً ما وصفوا به كتاب الله.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَـاوِينَ (٤٢) سـورة الحجر
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّـنْ هُـوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) سورة سبأ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِـنْ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَـرَّمَ الرِّبَـا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) سورة البقرة
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) سورة الحج
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الـشَّيَاطِينُ(٢٢١) تَنَـزَّلُ عَلَـى كُـلِّ أَفَّـاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) سورة الشعراء
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَـهُ قَـرِينٌ(٣٦) سورة الزخرف
ثم بماذا يأمر إبليس – لعنه الله – أولياءه، وبعدهم ويمنيهم وما يعده إلا غروراً.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّـرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّـهِ فَقَـدْ خَـسِرَ خُـسْرَانًا مُبِينًا(١١٩) سورة النساء
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦٨) سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ(٩١) سورة المائدة
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْـذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(٢٧) سـورة الإسراء
ولكم ورغم كل هذا الفعل القبيح من إبليس وأنصاره.
وها هو ذا الإغواء الأثيم.

والإفساد اللئيم.
ألا يخشى إبليس الخالق العظيم؟
ألا يخاف رب العالمين؟
الله خالقه وخالق كل شئ وإليه ترجع الأمور
استمع يا من غرك بالله الغرور..
يا من شغلك إبليس عن الحق وجعلك كذاباً دنيوياً.. مادياً.. مشركاً بالله.. تخال أن المال والولد والجاه والسلطان هم الحياة.. وإن كانوا كذلك فهم الحياة الدنيا، وللآخرة خير وأبقى. فإن يوماً عند ربك بألف سنة مما نحيا.
فها هي ذى ساعة الجد تقبل، وساعة الحق تنطق – حتى الكاذب بالحق..
فماذا يقول ولى الظلمة إبليس لحظة جد الجد؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤٨) سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٢) سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) سورة الحشر

ها هو ذا الحق ينطق حتى عن لسان إبليس، وها ذا أنت أيها الخاطئ الخطاء وحيداً لا ناصر لك ولا مستنصر.
وها هو ذا إبليس يعلنها صريحة أنه منك برئ، وأنه لم يرغمك بل عرض عليك وأغوى فغويت وقبلت فضعت وضيعت.
ثم تأمل إلى أول العصاة وهو يعلنها أمام الواحد القهار الذى تذل أمامه الجباه قائلا:
إنى أخاف الله
يا الله..
يا الله..
يا الله..
سبحانك..
جل قدرك..
وعلا شانك
أمامك كل مخلوق لا ينطق إلا بالحق..

فحتى العاصى الأول: يخافك ويخشاك.
أما ذلك الذى خلقت طيناً فيجهل قدر نفسه، ويظن الظنون.
فما أبأسك..
وما أتعسك..
يا ابن آدم وحواء
يأخذك الكبر..
وتنسى ذكر ربك..
فتتخاطفك شياطين الجن..
بينما لا تستطيع شيئاً من هذا مع الذين يذكرون أو يتذكرون ما أمرهم بـــه رب العالمين فى قرأنه العظيم.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَـــزَاتِ الـــشَّيَاطِينِ(٩٧) وَأَعُـــوذُ بِـــكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) سورة المؤمنون
دعاء بسيط صادر بأمر ربانى ليكون فيه الحفظ لمن يتذكرون.
وفى القرآن الكريم من الأدعية والقراءات الكثير.
وفى السنة المشرفة أكثر من حديث وجمعيها تذهب همـــزات الـــشياطين، وتحفظ من يتلوها من كل شيطان رجيم ولكن بـــشرط أن تكـــون القـــراءة ويكون الدعاء من نفس صافية محبة مؤمنة بالله وبرسوله عليـــه أفـــضل صلاة وسلام.
فبالله نعوذ من همزات الشياطين.
وبالله نعوذ بك أن يحضرون.

الفصل السابع

الإنسان خالقه به أعلم

ذلكم كان أمر الجن..
وذاك كان حال آدم عليه السلام..
خلق الله الجن من نار..
ثم خلق آدم من طين.. ونفخ فيه الخالق العظيم من روحه فتحرك، وأصبح الطين: عظما، ودما، ولحما، يملك الفؤاد والسمع والبصر والبصيرة.
وتملك، الكبر إبليس فعصى أمر ربه، ورفض من خلقه الخالق العظيم من نار، أن يسجد لمن خلق من طين.. فأصبح إبليس أول العصاة. فطرد من الجنة مذموما مدحوراً، فازداد كرها على كره لآدم، وتوعد، هو وذريته بالإغواء والإفساد أمة من بعد أمة.
ونجح إبليس فى الإغواء الأول..
ونسى آدم تحذير ربه له من إبليس وقبيله فأكل هو وحواء من الشجرة المحرمة وغوى، وندم واستغفر، وفتح آدم بفعلته تلك أما ذريته باب الخطأ والتوبة والاستغفار الرؤوف الغفور. الرحمن. الرحيم وقبل توبته، فغفر له وتاب عليه، وإن كان لابد من أن يوقع عليه الجزاء، وأن يذقه نتيجة فعله ومعصيته، ويحصد ما زرعت يداه.. ولو بشكل مخفف.
ويا الله ما أعظمك.
ويا الله ما أحكمك..
لو تأملنا فعلك وتعلمنا منه، لأصبحنا من حكمتك حكماء..
فلابد للخطأ من جزاء أى جزاء حتى وإن كان جزاء يسيراً. لأن الجزاء ضرورة، وربطة كنتيجة للفعل ضرورى.
أفلا تتدبرون.
هبط آدم إلى الأرض من بعد الجنة عقاباً له.
وهبطت حواء إلى الأرض التى سبقهما إليهما من قبل إبليس..
وعمرت الأرض بسكانها..
وتكونت صورة الحياة عليها إلى أن تقوم الساعة..
خير بالفطرة يتمثل فى الإنسان خليفة الله على الأرض.. وشر يترقبه بالدمار متمثلا فى إبليس..
ولأن الجزاء لآدم وحواء كان رادعاً، رغم عدم تمام الجزاء بالإهلاك وعذاب نار جهنم، إلا أن حياتهما الجديدة كانت شديدة القسوة، مما ضخم من وقع الجزاء عليهما.. فالفارق شاسع بين حياة وحياة..
حياة الجنة بلا جوع ولا عرى ولا آلام ولا شقاء..
وحياة الأرض بكدحها وشقائها وأوجاعها..
لهذا كانت خشية الخطيئة فى نفسيهما قائمة..

وكان الحذر من إبليس يجعل من كل ذرات العقل دفاعات ضد أى وسوسة أو إغواء. فتحطمت قوى الشر داخلهما وعمرت الأرض بالسلام..
وراح إبليس يترقب متحفزاً ليهتبل أية فرصة. أياماً وشـهوراً.. إلـى أن جاءت بأمر الله ذرية آدم وحواء، وكان الخالق العظيم يهب لحـواء ولادة مزدوجة فتنجب فى كل ولادة ذكراً وأنثى وكان مسموحاً بـالزواج بـين الاخوة، ولكن ليس بين التوأمين، ابنا الولادة الواحدة، وكان بكرهما هابيل وأخته ثم وضعت حواء قابيل وأخته، وتتحدث الكتب الكثيرة عن أنه نـشأ بين الأخوين الخلاف، وتدخل إبليس بالوقيعة وإثـارة نـار الغيـرة بـين الأخوين بسبب رغبة كلاهما فى الزواج من توأمة هابيل شديدة الحـسن، ولكن وبالنص القرآنى لم يرد شيئاً من هذا، بل جاء فى كتاب الحق تبارك وتعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ(٢٧) سورة المائدة
والغيرة هنا كانت من أجل قبول قربان أحدهما، ورفض قربان الآخر.
ومن تقبل الله قربانه كان هابيل.
ومن لم يتقبل قربانه كان قابيل.
ومن هذا وذاك جاءت الفرصة وسنحت لإبليس لكى يدنس السلام الذى كان يسود الأرض.. فراح يوسوس لقابيل أن اقتل أخاك لكـى تـسود وتنفـرد وتتفرد بالحياة والقبول لدى الله.
ولأن الرفض من الله للقربان كان لمعرفة الخالق العظيم بنفس عبده قابيـل الشريرة رغم ظاهره الذى يبدو طيباً..
ولأن القبول من الله للقربان الذى تقدم به إليه عبده هابيل، كـان لمعرفـة الخالق بنفس هابيل الطيبة الصالحة العابدة المتوائمة داخليا مع ما يظهـر من عبادة وتقديس لذات الله.
فإنه لابد لنا وأن نتوقف ها هنا للتأمل والتدبر والتـذكر، ولنعمـل العقـل لنخرج بحقيقة أن الله سبحانه وتعالى لا يتعامل مع ظاهر أفعالنا، بل يتعامل الخالق العظيم مع ما وقر فى القلب واستقر فى النفس وهو ما يسمى بالنية.
فقابيل تقدم بقربان لله ولم يتقبل الله منه، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحـب إلا ما كان طيباً يصدر ظاهر الفعل فيه عن نفس صافية لا تضمر غير ما تظهر، وبهذا يكون فى الكثير من أفعالنا ما يشوبه عـدم الإخـلاص فـى القصد منه فقد نخرج الزكاة ونحن نخشى الحاكم من البشر، وقد نتـصدق ونحن نحب التظاهر ولفت الأنظار وأخذ المواقف الدنيوبة ليقال فى حقنـا من الناس حسنا، فالفعل هنا وهناك باطل لأنه لم يصدر ابتغاء مرضاة الله ومخافة عذابه، تدبر معى قول الله تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَـيَّ يَـدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَـالَمِينَ (٢٨)

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ(٣٠) سورة المائدة

سبحان الله.
ما أروع النفس حين تكون نفساً صالحة صافية..
وما أبشع النفس حين تكون خبيثة..
هل قرأتم كم كان هابيل طيباً؟؟
وإنه يرفض صراخ إبليس..
يرفض أن يعصى الله.
حتى لو رأى القتل يعمل فيه، والموت يحدق به.
لأنه يريد أن ينال ثواب الآخرة ونعيمها الذى هو أبقى.
فينال رضا رب العالمين.
ويخاف عذاب ربه والنار التى هى جزاء الظالمين إن عصى أو فعل حراما
تدبر معى قول الله تعالى:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ (٣٠) سورة المائدة
ما أبشعك أيتها النفس الخبيثة.
ما ألعنك يا إبليس..
قبحت..
وقبحك الله.
ولعنت على مدى الحيوان.
أخ طيب ارتضى طريق مرضاة ربه. يخافه ويخشاه، ويعلنها لأخيه الشرير قابيل محذراً من أن لو قتله سيبوء بإثمه وإثم نفسه وسيحمل كل الخطايا مجتمعه.
ولأن قابيل لا يسمع الدعاء فهو أصم.. فإنه ليس بالضرورة أن يكون الإنسان أصما حتى لا يسمع، فقد يجيئه الصمم الوقتى، لأن إبليس قد حال بينه وبين الإدراك، وحين يتوقف الإنسان عن الفهم فإنه يصبح أصماً بل وأعمى، والعمى أيضاً لا يكون بالضرورة لفاقد الإبصار فقط، بل من الممكن أن يكون أيضاً للمبصرين، لأن أزيز الشياطين إذا نال منهم يعمى بصيرتهم، فتعمى منهم الأبصار.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم..
وهذا كان حال قابيل حين سمع ما سمع من أخيه، فلم تصل كلمات هابيل إلى إدراكه وطوعت له نفسه الخبيثة قتل أخيه فقتله..
وانتصر إبليس..
وهكذا كان قابيل أول القتلة فى تاريخ البشرية.. وأصبح قابيل من الخاسرين.

بل وحين تغلب على أزيز إبليس وأفاق من وسوسته، انتفض على حقيقة كونه قتل أخاه وأه سفك دمه.. وأصبح من النادمين على ما فعل، وعلى انكشاف عجزه وضآلة حيلته أمام إرشاد الغراب له ليعلمه كيف يوارى جثمان أخيه في التراب..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ (٣١) سورة المائدة

وبهذا شاء إرادة الله أن يكون أول من يدفن بباطن الأرض ليتحلل في تربتها هابيل بن آدم الذى خالقه الله من ذاك التراب ثم سواه وجعله بشراً سويا يتزوج.. وينجب.. ولكن إلى أين. ومن أين؟؟

من تراب..

وإلى تراب..

وهذه هى المعادلة الثابتة فى حياة البشر والكائنات الحية..

أفلا تتفكرون

ولأن البشر الأول كانت معرفتهم بأمور الحياة فوق الأرض بسيط إن لم تكن منعدمة، وهذا ما أكدته حاجة قابيل لأن يتعلم كيف يوارى جثمان أخيه الذى قتل. فأرسل الله الغراب إليه لينبش فى الأرض تدريباً وتعليما لقابيل أن احفر الأرض وأسكن هابيل فى باطنها ثم أهل التراب على جثمانه.

ولقد اجتهد هنا بعض المفسرين من القدامى فقالوا إن الغراب تقاتل مع غراب آخر ثم واراه التراب، ولا أدرى من أين لهم هذا الاجتهاد، ولا ما هى القرائن التى جعلتهم يحيكون هذه القصة تماما كما سبقوا إلى رواية الصراع بين هابيل وقابيل حول الزواج. ويتدرج بنا الأمر إلى ما قالوه تفسيراً لما ورد فى سورة المائدة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ(٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) سورة المائدة

فلقد قالوا إن ما حدث ورأيناه آنفا لم يكن بين ابنى آدم، ولكنه كان بين رجلين من بنى إسرائيل، لأن النتيجة كان عائدها على بنى إسرائيل: من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل..

ولا أدرى كيف وبعد كل تلك الأمم التى سبقت بنى إسرائيل فى الحياة لا يعرف رجل منهم كيف يدفن من مات أو قتل؟ وهل كانت جثث الموتى فى كل تلك الأمم تترك فى العراء بلا دفن وإن عرف الفراعنة الدفن والتحنيط وهم أسبق فى النشأة من اليهودية؟

أيضاً هل التحذير الربانى من أن يكون القتل عن غير طريق القصاص أو بسبب الفساد فى الأرض وفداحة الجزاء الإلهى للقاتل.. هل هو أيضاً خاص ببنى إسرائيل أم هو عام للناس كافة؟؟
ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء عن ه ما يؤيد أن القاتل والقتيل كان ابنى آدم من صلبه فيما رواه عبد الله بن مسعود من أنه عليه الصلاة والسلام قال:
" **ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها وذلك لأنه أول من أقدم على القتل** "
وهذا يؤكد أنه لابد من تواصل المفسرين لكتاب رب العالمين بما يتفق وارتفاع ثقافتهم وزيادة معارفهم، وما يفتح عليهم الله به.. فكتاب الله العظيم، وقرآنه الكريم هو كتاب كل الأمم وإلى أن تقوم الساعة، وعلمه على متصل متواصل لأنه علم مكنون يعطى الله منه بقدر ما يعطى ويخفى على الأمم المتواصلة ما يخفى، لطفا وحفظا، وكما سبق وتحدثنا بهذا ولنا إن شاء الفتاح العليم مواصلة مع هذه القضية.
ولنعد ثانية إلى أصل الموضوع وهو: انتصار إبليس ثانية على الإنسان فبعد انتصاره الأول فى الجنة على آدم وحواء عاد لينتصر على ابنهما قابيل وجعله يقدم على أقبح الأفعال عند الله بقتله أخيه لغير قصاص أو إفساد فى الأرض.
لذلك نجد الجزاء فادحاً رهيباً.. فالحساب لمثل هذا القتل مهين.. متصل.. والصورة الربانية توضح مدى البشاعة للفعل ومدى هول ما ينتظر القاتل الظالم، فهو بفعلته كأنما قتل الناس جميعاً..
الله لطفاً ورحمة وبعداً بنا عن كل فعل لا ترضاه..
ويا أحبتى فى الله: إن الفعل القبيح لا يكون مصدره إلا إبليس وقبيله عليهم لعنه الله.
أما الإنسان، فلقد فطر على حب الخير وكن آفته الكبرى النسيان، وحين ينسى يتكبر ويتجبر، وتغيب عنه حقيقة ضعفه وأنه خلق من طين.
وهكذا يقول عنك خالقك العظيم وهو بك أعلم.
فلنتدبر التحذير الربانى لآدم من إبليس ثم كيف ورغم وضوح التحذير: نسى فغوى وسمع لقول عدوه.
وأيضاً لنتأمل أمر قابيل بن آدم لصيق أبيه، والأب نبى يدعو لعبادة الله الواحد، وكيف أنه ورغم النشأة الصالحة: استمع إلى إبليس فغوى.
من أجل هذا وذاك..
بعث الخالق العظيم الأنبياء..
وأرسل الرسل..
تذكرة للإنسان الضعيف..
وجلاء لبصيرته..
وتنقية لنفسه..
وتذكيراً له بحقيقة أمره..

وقدرة ربه..
وبتكرار النسيان
وبتكرار الزلات والهفوات جيلا من بعد جيل..
يتبين لنا الضعف البشرى
ونتأكد من أنه لا كمال إلا للخالق سبحانه وتعالى.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ(٥٤) سورة الروم
هكذا حياة الإنسان أطوار متباينة، لا استقرار بدنى ولا نفسى إلا بالإسلام فالدين عند الله الإسلام، وهذه كانت دعوة الرسل منذ آدم فإبراهيم فموسى فعيسى فمحمد عليهم أفضل الصلوات والسلام. ولا يكون الإسلام إسلاما إلا بادراك الحقيقة التى تقول أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله.
فهكذا كانت البداية، وعلى هذه الحقيقة تكون. حين يشاء صاحب القدرة نهاية هذا الكون الذى سيظل لغزاً نتكشف حقائقه والتى هى مثبتة فى أم الكتاب لمن يريد الله من الأمم والأفراد..
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) من سورة البقرة
ويا أصحاب الألباب
ويا أخوة الخير والإسلام
ألا تتدبرون كيف كانت بداية الخلق: كتاب، واختتمت الرسالات بكتاب اقسم رب الكون أنه سبحانه وتعالى انه سيحفظه.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) سورة الحجر
وبهذا يظل القرآن العظيم (الذكر) هاديا للبشرية تجد فيه مخرجا من كل معاناتها الدنيوية ومدخلاً لحياتها الأبقى، حياة ما بعد الموت، (فالقرآن هدى ونور لمن يبحث عن نور الدنيا والآخرة، وذكرى للأمم لكى تتدبر، وتتأمل وتزداد خشية لله رب العالمين الذى نحتاجه من أجل استمرارية هذا الوجود الذى يتحرك من حولنا حسب قوانين حددها خالقه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.
أما أنت أيها الإنسان فإنك هالك لا محالة، والموت هو فى حياتك حقيقة.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٧٠) سورة النحل
وفى حياتك قد تعبر إلى الموت حيث الجنات، وفى حياتك قد تتردى بالموت فى عذاب السعير والفيصل عملك.
ولا يحسن عملك إلا إذا خشيت الله فى السر قبل العلن، وإن تفعل ما أمرنا به وتمتنع عما نهانا عنه، فلم يأمرنا ربنا إلى بالخير.

والنهي دائما كان عن كل ما يضر بنا كبشر.
أما الأمر بالفعل فهو من أجل سعادتنا واستقامة حياتنا الدنيا وصولا بها إلى الحياة الأبقى والأكثر ديمومة حيث لا ظلم اليوم، ولا عنت أو شقاء وهذا لا يكون إلا كحصاد لما زرعنا فى حياتنا الدنيا.
فهل نشترى الأدنى بالأعلى؟
هل نشترى سنوات هى لحظات فى حياة أخرى اليوم فيها بألف سنة مما نعرف فى الدنيا؟!
هل نفتدى حياة الكون الطينى بحيوات الروح؟!
أن كل ذى عقل يدرك السبيل..
فهل أنتم مدركون؟